مارون عبود

جُدُدٌ وَقُدَماء

دراسات، ونقد، ومناقشات

لم نكن في ايامنا ننتقد بنزاهة كما يجب. كانت تأخذنا في بعضهم هوادة، احياناً، فكم غضضنا النظر، وكم غمرنا العالم والمتعالم بفيض من التقريظ والثناء.

ان واجب الناقد هو ان يعرف كيف يجد الخطأ، وان ينتقد حيث يجب الانتقاد.

اناتول فرانس

دار الثقافة بيروت

ليلة جاحظية

كنت افكر في احدى امسيات تشرين بموضوع اكتبه بمناسبة انعقاد الاونسكو في لبنان فنمت مهموماً . وكأنما الاحلام بائتة تحت مخدتي ، فما اسندت رأسي اليهـا حتى سحت في دنيا الله الواسعة ، وبعد طواف اضناني رأيتني في بيتي في عين كفاع انشر على مكتبي كتاباً دهرياً فيه نخاريب وانفاق . وبينا كنت اتبين كلمة اكل اكثرها سمك المكاتب، اذا ببابي يدق دقاً غريباً فقلت : من ؟ فلم يجبني غير قلقلـة المفتاح في القفل كأن فاعلها لا عهد له بالاقفال الحديثة .

وطال الدق والقرع ، فنهضت ارجف غضباً ورعباً وفهت بما يدور على لسان كل غضبان . وفتحت الباب بنزق فانشق عن رجل ما رأيت قط أبشع منه وجهاً ، بعينين مثل الكلوتين وشفة كقطعة من طحال ، مربوع بدين، كل ما فيه راعب حتى الابتسامة . فصحت من هلعي : اسم الصليب وذكر الصلبان .

فما راعني الا زائري الجميل يرد علي بقوله : اعوذ بالله من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم .

فصرخت به لما انكشف عن انسي : وانت تبسمل ايضاً يا حلو !

فضحك وقال لي : لامك الهبل ، اوحسبتني شيطانـاً ؟ اين الذنب والقرون يا ذكي !..

ولم يمهل حتى ادعوه للجلوس بل استوى على الكرسي ثم قال : اجلس ، جئناك ، قل ما تريد منا . فسكتُ . ثم حاولتُ الاخذ بالحديث فما قدرت ، وفيما انا اتفرس فيه رفع يده وحركها في وجهي قائلاً : لماذا تعوذت باقانيمك الثلاثة ؟

قلت : لأخزيك ، هكذا علمتني امي ، رعبني جمالك الفتان يا شيخ . وانت لماذا بسلمت ؟

فجمجم في حديثه ثم افصح قائلاً : اتراك اجمل مني ؟ احقاً خلتني شيطانا ؟

قلت : نعم ، ومن يدريني ...

قال : لعن الله تلك اليهودية .

قلت : مَن الشيخ ، ومن اين مقدمه السعيد ؟

قال : لولا عرفتني لانفرج شدقاك ، وامتلأ فمك فرحاً .

فقلت : هلا تقول وتريحني ؟

فاجاب بعد قليل : إنا نبلوك ليكشفك الامتحان ، كيف لا تعرف من تمنيت زورته ، وقلت ليته يعود الينا ساعة فنراه ، قد ادرك مالك شهوتك هذه فأشر لي آذناً بالمجيء اليك .

فاستغربت حديثه وقلت له : منو مالك ؟

فاجاب بلا اكتراث : خازن النار .

قلت : اذن لا بد من جواز سفر حتى في مملكة جهنم ...

قال : لا يكون شيء الا من بعد اذنه .

ورأى ارتباكي وتعسر معرفته علي فاشار بمداره وقال : انك لا تفلح ، وما في الناس عبقري كشيخ النار ...

فعرفته بها وعلمت انه الجاحظ لا شك فيه ،فقمت اليه اصـــافحه قائلا: اهلا برجل ينوب عن الجحيم بنفســـه . ليتك اسقطت عن نفسك هذه المؤونة . كنت امرت فذهبت اليك .

فكركر في الضحك قائلا :

كل آت قريب ... طرقتك زائراً الليلة وستردّها لي ، ان بي لشوقـــاً الى رؤية جهنمكم ، وتقبيل وجنتيك .

قلت : ابهاتين الشفتين القرمزيتين الرقيقتين ؟

فقال مشيراً الي : ليس اليق منهما بهذا الجمال الساحر ، والشباب الغضّ ، والجسم

البض" ... وكان يعض على الضاد فتخرج من فمه عريضه ضخمة كأنه لم يبرأ من الفالج كل البرء .

وامتد بنا السخر والتهكم والمزاح حتى تجرأت عليه ، وقمت اعلق في جيبه منديلا يقي صدره من اللعاب السائل . فضحك وقال : ذاك كان في دنياكم ، أوما تراني غير ما سمعت بي ؟ فضحكنا وقعدت استعط . فما رأى علبتي حتى انقض عليها بمخالبه الخمس كأنه يأخذ ملحاً لتدر هريسة ، ثم غيّب العاطوس في انفه ولم يعطس ولكنه تجلى وفرح ، ثم فرك انفه وقال ان عاطوسنا افعل من هذا وستفرح كثيراً يوم تصير الى جنتنا ذات اللهب ، فنظراؤك كثر هناك ، ان حقتهم الذهبيـة ملأى من العاطوس الروماني ... انه اطيب من هذا .

قلت : ويحك ما امر نكتتك، الا تتركها حتى في النار ، فكيف حال من فارقت؟

قال : بخير يسلمون عليك .

قلت . بحياتك تقول لي اين موقع جهنم ؟

فأجاب : في الدرجة الثالثة والثلاثين من عقلك ... وما يهمك هذا الامر ، ان طريقها معلمة ، والمجاز غير قلق .

قلت : والزبانية اهم على كيدهم لنا ؟ وكيف حال لوسيفورس ؟

قال : نعم ، ولكنهم سيحتفلون بقدمك احتفالاً لا تنساه .

قلت : ما بال هؤلاء الشياطين حاقدين علينا ؟ أنحن من وسدهم تلك المهاد ،ونحن وقفناهم على النار ؟ عليهم بميخائيل وجنوده من كل ذي جناح في الجنة..

قال: هو كذلك في دين النصارى ، اما في ديننا فلولا سجدوا لآدم دخلوها. وسكت بغتة ثم قال: قربتني كلاماً يا هذا .

قلت : عفواً يا عمرو ، الفرح ينسي ، ناهيك بأني تائق لاخباركم .

فاستبشر لما دعوته بأحب الاسماء عليه وقال اني لم اطعم منذ يوم وليلة ، فقد الزاد في الطريق ، ونفضت الجراب على رصافة هشام قدام كنيسة مار جرجس ...

قلت : وهل رأيت الاخطل هناك ؟

قال : لا اخطل ولا مخطل ، اين العشاء ؟

قلت : ليتك نفضت جرابك على هذا المكتب فكنت ارى طعامكم .

قال : سوف تراه وتشبع منه ان شاء الله ...

وسكت وسرت لاقول على عادتنا : اهلاً وسهلاً بالضيف ، شرفتني بأن جعلت راحتك عندي الليلة .

فصاح : اف ، اف ، حقاً انك بليد ، حطّ الطبق ثم ثرثر ما شئت .

قلت : حقاً انك جوعان و ...

فقال : هفوان ، اين العشاء وما هو ؟

قلت : هو مضيرة وسمك ، ورزّ بارد ...

فضحك وقال : يمسخك الله مثل رزك ، هات السمك والمضيرة ومرحباً بالفالج ..

فقلت : و كيف حـــال ابن ماسويه ، فقال : رفعه الله الى اسفل ، فصار طبيب خازن النار الذي سميته انت ... ماذا سميته يا ربي .

قلت : لوسيفوروس .

قال : اي نعم . ورأى الطبق مقبلاً فتحرك ليحكم قعدته فسقط بضعة مجلدات عن الرف فاجفل وانتصب .

فقلت : لا يلدغ مؤمن من جحر مرتين. فأجاب وعيناه في الطبق: ولا كافر مثلك..

قلت : لولا تموت بها يا شيخ مرة ثانية فترتاح من عذاب النـار . فتبسم وقال بعد ان بلع اللقمة : اصدقت هذه الرواية ، فلو اهوى علي جبل عبّود، واطبق فوقي أُحد لما فطست ...

وانقض على الطعام بالسكين والشوكة فقلت : كأنك ابن زماننا يا ابا عثمان !

قال : نعم ولا فخر ، قد علمني فولتير آداب سفرتكم .

وتذاكرنا الشعراء على الطعام فأثنيت على جديد بشار ، فغص الجاحظ ومصمص لسانه ، فغمزت الخادمة فصبت له الخمر في كأس نواسية وتمثلت :

تدار علينا الراح في عسجدية حبتها بانواع التصاوير فارس

فانسته حلاوة ابي نواس مرارة بشار . فاستزاد من الخمرة المعتقة حتى كرع ثلاثاً اخطليات وقال : ان شرابك المفلفل لخليق بذاك الظريف الديّوث...

فقلت له : لقد اجدت يا استاذ العرب وسيد الادباء .

قال : وبماذا ؟

قلت : بقولك في ابياته هذه بلسان احدهم وهو جرّار: هذا شعر لو نقر لطن...

قال : حزرت ، وماذا يجس في صدر الدجاجة ...

وجاءت الجارية لترفع الطبق ، فصوب الجاحظ نظره فيها وصعده فقلت له : لا تخف ان عدت الينا مرة اخرى،فهي ليست سندية فتقول(الجاحد) او (الحلقي) بالباب. فبدهني بقوله : ولكنها تقول المسيو جاهز ، او المستر هدكي ...

وادركت حقارتي ازاءه فتوقيته ، ورفعت الحديث وقلت : ما ادري كيف اغفلك ابو الفرج الاصفهاني ولم يترجم لك .

قال : لانه مثلكم يعني بالشعر والشعراء ، ويبخس الكتاب اشياءهم .

قلت: الحق معك يا استاذنا الاعظم، ان العرب ليباهون بك،وما هذا الا نسيان، وان انا ذكرتك دونهم فلانني اتدارسك مع تلاميذي فانت احد الثلاثين (الخالدين) في منهاج البكالوريا اللبنانية .

وردد كلمة بكالوريا حتى استقام له لفظها وسألني: ما البكالوريا ؟ فخبرته فاستضحك واثنى ثم قال: وهل سألوهم عني ؟ قلت: نعم و كنت ميمون الطالع عليهم يا ابا عثمان.

اما الاحتفال بذكراك فهذا مجد للعرب، بل هو قسط من دين لك عندهم مستحق منذ الف ومئة عام ، اما هززت (العصا) في بيانك وتبيينك دفاعاً عنهم ، فلله انت من ابن بار ...

فتناول الكلام وقال : ولله انت ، ولله ابوك، ولله جدك ، يا اديب الادباء وسيد البلغاء ، وامام الفصاحة واللسن ، ونبراس الزمن و...

فصحت : وي وي وي وي ، ايش هذا ، حقاً انك ابن بحر . أخرفت يا شيخ ؟

فقال : لا والله ، عشت مئة وخمس سنين بعقل كامل ، ولكنك سررتني بكلام ففرحتك بمثله . اتريدني على الصمت وقد اطريتني حتى فلقتني .

قلت : انا لم اعد القيام بالواجب لك .

قال : ومن قال لك اني لئيم ؟ فأنا رجل لي بصر بالكلام وانشاؤه صناعتي .

قلت : لقد صدق ابن ابي دؤاد اذ وثق بظرفك ولم يثق بدينك .

قال : عليه لعنة الله ؛ فهو كسفود النابغة في سقر ...

قلت : اتتشفى ، وانت كيف ؟

قال : في نعيم ، في نعيم مقيم ، ثم مسح فمه بكمه وقال : قم بنا فنزور الاونسكو ونرى ما عندكم من علم وادب .

فقلت : اما وقعت على غيري .

فأجاب : ان الطيور على اشكالها تقع . ان سيري معك أسترُ لي. مجنون انا حتى انتقي غيرك خرّيتاً .

فصحت : يا ويلاه . اما وجدت غير كلمة خرّيت يا ابا عثمان ؟!

فضحك وقال : لكل مقام مقال ...

وبلغنا بوابة مدينة الاونسكو فرأى الاعلام منصوبة على الركائز فعدّها وقال وهو يقهقه : ام اربع واربعين ... وما دخلنا قاعة المحاضرات حتى سمعته يقول : كأنها دارة جلجل .

فقلت : أتراها صالحة لاحدى اللذات الاربع المنقوصة . فأجاب: لو كان فيها ماء .

وشاع الاستغراب والرعب في وجوه النظارة والهيئات حين دخولنا . ظنونا من عالم آخر ، اما المحاضر فكان يتحدث بحرارة عن السلام والمحبة . وافاض في الكلام فمال علي الجاحظ وقال : دعنا من سحر الكلام ، فهو ألهية لا غير .

ودق جرس التلفون فانقطع الحلم . كان المتكلم الاستاذ بهيج عثمان يطلب مقالا للاونسكو فقلت له : الليلة يكون عندك ، ولكنني كتبت موضوعاً آخر يطابق مقتضى الحال ...